جامعة الأزهر

مجـــــلة

كليـة الدراسـات الإسـلامية والعربيـة

سـوهاج ـ قنـا ـ أسـوان

العـدد السـابع

١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

ابن بسّام ناقدًا

بقلم

الدكتور محمود محمد أمين

مدرس الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن بسام ناقداً

تمهيد :

— ١ —

البحث — كما هو واضح من عنوانه — يتكون من نقطتين رئيسيتين :

الأولى عن شخصية ابن بسام • والثانية عن لمحاته النقدية •

أما النقطة الأولى فسنلقى فيها — بمشيئة الله — الضوء على شخصيته من حيث :

١ — مولده ونشأته • ٢ — تنقلاته ورحلاته •

٣ — منزلته الأدبية •

وأما الثانية فسنوجز فيها الحديث عن :

١ — منهجه فى النقد •

٢ — القضايا النقدية التى كانت ميدان نقده وأهمها :

(أ) النزعة الأخلاقية • تلك النزعة التى امتاز بها ابن بسام عن سائر معاصريه من النقاد وأرباب الأدب آنذاك •

(ب) الفلسفة والشعر • تلك القضية التى شغلت بال الأندلسيين جميعا لفترة من الزمن •

(جـ) الموازنة بين شعراء الأندلس بعضهم بعضـا وبينهـم وبين الشعراء المشـارقة عمـوماً .

(د) البديـع بأنواعه . وسنرى ـ إن شـاء الله ـ فى ثنـايا البحث أنـه جعـل البديـع : « قيـم الأشعار وقوامها إذ به يعرف تفاضلها وتباينها » فهـو عنده مقياس العمـل الأدبى .

(هـ) السرقات الأدبيـة . والشعر منهـا بصفة خاصـة .

ونشرع الآن ـ بتوفيق من الله تعالى ـ فى الحديث عن النقطـة الأولى الرئيسية فى موضوع البحث ونبدأها بالحديث عن ابن بسـام حيـاته وشخصيته ..

ـ ٢ ـ

ابن بسام حياته وشخصيته

١ ـ حياته :

يعرف تاريخ الأدب رجلين بهذا الاسم : ابن بسام موضوع بحثنا هذا . وابن بسام أبا الحسن على بن محمد المعروف بالبسامى وهو شاعر هجاء بغدادى توفى لسنة ٣٠٢ هـ ٩١٤ م « اثنتين وثلاثمائة هجرية الموافق لسنة أربع عشرة بعد التسعمائة الميلادية »(١) .

أما ابن بسام ـ موضوع البحث ـ فهو أبو الحسن على ابن بسام الشنتريني التغلبى من أهل أشبيلية وأصله من شنترين من بلاد الأندلس . يكنى أبا الحسن ويعرف بابن بسام وينتمى نسبه إلى قبيلة تغلب العربية .

ترجم له ابن سعيد (المتوفى ٦٨٥ هـ) صاحب كتاب « المغرب فى حلى أهل المغرب » بقوله : « هو الأديب أبو الحسن على

---

(١) ترجمة هذا الشاعر فى « قاموس الأعلام » لخير الدين الزركلى جـ ٥ ص١٤١ . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى جـ ٥ من ص١٣٠ ـ ص١٥٢ . وذكر أن اسمه : على بن محمد بن نصر بن منصور أبو الحسن بن بسام . ويقال : « البسامى » شاعر هجاء عالم بالادب والاخبار من اهل بغداد نشأ فى بيت كتابة وتقلد البريد . وأكثر شعره فى هجاء والده وجماعة من الوزراء . له كتب منها : « أخبار عمر بن أبى ربيعة » و « كتاب المعاقرين » و « مناقضات الشعراء » .

ابن بسام التغلبى الشنترينى • العجب أنه لم يكن فى حساب الآداب الأندلسية أنه سيبعث من « شنترين » قاصية الغرب ومحل انطعن والضرب من ينظمها قلائد فى جيد الدهر ويطلعها ضرائر للأنجم الزهر • ولم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة أشبيلية ولا غيرها من الحواضر الأندلسية العظام من يمتعض امتعاضة لأعلام عصره ويجهد فى جميع حسنات نظمه ونثره • وسل الذخيرة فانها تنبىء عن محاسنه الغزيرة »(٢) •

وذكر « خير الدين الزركلى » فى كتابه (قاموس الأعلام) أنه من الكتاب والوزراء وأنه توفى سنة ٥٤٢ هـ « اثنتين وأربعين وخمسمائة هجرية » •

ولعل معتمده فى سنة وفاته ما قاله « المقرى » صاحب (نفح الطيب) حيث قال : « وتأخرت وفاته إلى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة • وهو منسوب الى (شنترين) من الكور الغربية البحرية من أعمال بطليوس »(٣) •

ومع أن لابن بسام من الشهرة الذائعة ومع ما لكتابه (الذخيرة) من التقدير والتبجيل بين أهل الأدب فى المشرق والمغرب إلا أنه ـ أى ابن بسام ـ لم يحظ بترجمة وافية •

فلم يترجم له « ابن بشكوال » صاحب (الصلة) و (المتوفى ٥٧٨ هـ) مع كونه من أهل عصره وبلاده وسبقت وفاته صاحب الصلة بنيف وثلاثين عاما •

---

(٢) انظر المغرب لابن سعيد المراكشى جـ ١ ص٤١٧ وما بعدها .
(٣) انظر نفح الطيب للمقرى جـ ٣ ص٤٥٨ .

وكذلك أغفلته دائـرة المعارف الاسلامية إذ لم نـر لـه ترجمة فيهـا .

وقـد يسـأل سائل عن سبب إغفـال السابقين ترجمته فى كتبهم المعاصرة لـه واللاحقة مع شـهرة كتابه « الذخـيرة » . ولعـل من أسباب ذلك أن ابن بسـام قضى كثـيرا من حياته فى بلدته (شنترين) فـلم يشتهر اسـمه إلا بظهور كتـابه الذخيرة الذى ألفـه فى غـير شنترين . من هنـا فانه لم يعرف الكثير عن أسرته ولا عن طفولته وشبابه سـوى أنـه نشـأ ببلدة (شنترين) وبهـا كانت ولادته .

فهى إذاً مسقط رأسـه ـ كمـا يحدثنا هـو نفسه عن ذلك فى كتابه الذخـيرة غـير أنه لم يعـين لنـا سنة ميلاده وكذلك الذين كتبوا عنـه وترجموا لـه . فكلهم أغفلوا سـنة مولده .

وعلى ذلك فليس هناك تاريخ دقيق يحـدد سـنة ميلاده وليس من سـبيل إلى العـلم بهـا حيث لم تظهـر لنـا المصـادر شـيئاً عن ذلك . اللهـم إلا لمحـاً خاطفا واستنتاجا يرجـح أن مولده كان حـول سـنة ٤٥٠ هـ ، ١٠٥٨ م (خمسين وأربعمائة هجرية المتلائمة مع سـنة ثمـان وخمسين وألف ميلادية أو قبـل ذلك بشىء يسير) .

يستدل على ذلك من قـوله فى مقـدمة كتابه الذخـيرة : « فانما جمعته بين صعب قـد ذل ونشـاط قـد قـل وغـرب قـد غـل وشباب ودع فاستقل »(٤) .

ومعـروف أن هـذه الصفات تعترى الانسان ـ غالبا ـ فى سـن

---

(٤) الذخـيرة فى محاسن اهـل الجزيرة لابن بسـام ـ القسم الأول المجلد الأول ـ ص ٤ ، ص ٥ .

الأربعين . وإذا ما علمنا أنه بدأ فى تأليف الذخيرة سنة ٤٩٣ هـ(٥) ، « ثلاث وتسعين وأربعمائة من الهجرة » ترجح لدينا ذلك التخمين من أن ولادته كانت حول سنة ٤٥٠ هـ تقريبا .

وعلى ذلك يكون مولده فى حدود منتصف القرن الخامس الهجرى . وهذا الرأى ليس قطعيا ولكنه أرجح الاحتمالات .

٢ ـ تنقلاته ورحلاته :

قلنا فيما سبق إن ابن بسام ولد فى شنترين وبها نشأ ثم خرج منها وانتقلت به الأسفار وارتحل إلى « الأشبونة » ووافاها فى سنة ٤٧٧ هـ « سبع وسبعين وأربعمائة هجرية »(٦) الى بطليوس سنة ٤٨٦ هـ « ست وثمانين وأربعمائة »(٧) ، ثم قرطبة فى سنة ٤٩٤ هـ « أربع وتسعين وأربعمائة »(٨) الى حيث وصل أشبيلية فاستوطنها حياته .

يقول ابن سعيد عنه فى روايات المبرزين : « كان مستوطنا أشبيلية وأظنه منها »(٩) .

وحياته قبل هجرته من موطنه ـ شنترين ـ مجهولة تماما إلا من نتف مما أورده هو فى مقدمة كتابه الذخيرة ومنها يستشف أنه اجتمع له فى بلدته شنترين من المجد الطريف والعز التليد ما غناه عن سوء الاكتساب(١٠) .

---

(٥) الذخيرة ، القسم الثالث ص ٢٠٤ .
(٦) انظر الذخيرة ، القسم الثالث ص٢١٩ .
(٧) الذخيرة ، القسم الثانى ص١٨٨ .
(٨) المصدر نفسه ص٢١٣ .
(٩) رايات المبرزين ص٤٥ .
(١٠) انظر الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٨ .

ويغلب على الظن أنه كان يتخذ من « الأشبونة » أيضاً مقاما بل نرجح أن من آسرته من كان يقيم « بالأشبونة » وكان لهم فيها فضل وشهرة وسابقة سلف • لان ابن بسام كان يمدح هناك ويذكر بأبيه • فأبوه ممن لهم أياد بيضاء انتماء وعلماً • نلحظ ذلك فيما يقوله هو نفسه فى أثناء حديثه عن لون بديعى وهو « التقسيم » : « وأحسن من هذا التقسيم قول أبى بكر ابن عبادة القزاز من جملة أبيات خاطبنى بها أيام مقامه عندنا بالأشبونة أولها :

يا منيفاً على السماكين سام
حزت فضل السباق عن بسام(١١)

وفيما كتبه اليه أبو العباس أحمد بن قاسم :

يا دوحة المجد الكريم
وسلالة الشرف الصميم(١٢)

أما الشطر الثانى من حياته وهو ذكر هجرته إلى أشبيلية واستيطانه لها فلم يعن به إلا هو نفسه • إذ أنبأنا عن تغربه بأشبيلية وانفراده ، هناك سنوات حتى تبوأ منها مكانة • يقول : « فوصلت حمص » أشبيلية بنفس قد تقطعت شعاعا ، وذهب أكثرها التياعا •••• فتغربت بها سنوات أتبوأ منها ظل الغمامة وإعياء بالتحول عنها على الحمامة ، ولا أنس إلا الانفراد ولا تبلغ إلا بفضلة الزاد »(١٣) •

---

(١١) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص٣٩٤ .

(١٢) المصدر نفسه ص٣٩٢ .

(١٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٨ ، ص٩ .

وبمثل هذه العبارات عبر ابن بسام عن حالته الاجتماعية والنفسية وكشف عن مقاومته واحتماله لما حاق به .

وهكذا خرج ابن بسام من بلده « شنترين »(١٤) مهاجرا حين استجاشته نفسه الطموح إلى الهجرة عن موطنه إلى مدينة اشبيلية وارثة النهضة الثقافية بالأندلس .

ولذا نرجح أن لطموحه العلمى أثرا فى هجرته . وإن كان بعض المؤرخين يعزونها الى وطأة ظروف قاسية . لكننا لا نشك فى أن يكون طموحه العلمى هو السبب فى هجرته الى تلك البلاد . وحتى إنه لو لم تأته الهجرة قسرا ـ كما يدعون ـ لكان لرغبته الجامحة فى التأليف أكبر الأثر فى أن يرحل عن وطنه ليستعين بكثرة الكتب على تحقيق هذا الغرض الجليل وهو التأليف وليتمتع بالخزائن العلمية فى قرطبة وأشبيلية وكثرة المخالطة والمصاحبة لأهل هذا الشأن هناك . وهو ما يوحى به قوله : « وهذا الديوان نية لم يفصح عنها قول ولا عمل وأمنية لم يكن منها حول ولا حول ، كامن بين العيان والخبر كمون النار فى الحجر وجار بين اللسان والقلب »(١٥) .

---

(١٤) وعن شنترين يقول : ياقوت : إنها مركبة من كلمتين « شنت ؛ رين » وهى مدينة غربى قرطبة على نهر تاجة وهى حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوما وهى الآن للافرنج « معجم البلدان جـ ٣ ص٣٦٧ » . وضبط القلقشندى حروفها نقلا عن تقويم البلدان قال : « بفتح الشين المعجمة وسكون النون وكسر المثناة من فوق والراء المهملة وسكون المثناة من تحت وفى آخرها نون فيما هو مكتوب بخط ابن سعيد « صبح الأعشى جـ ٥ ص٢٢٢ » . وقال ابن سعيد فى صفتها نقلا عن الرازى : « وأرضها غاية من الكرم والطيب » (المغرب جـ ١ ص٤١٧) .

(١٥) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٨ ، ٩ .

وعلى كل حال فان ابن بسام قد ألف ذخيرته فى قرطبة وأشبيلية إذ بدأها ـ كما تقدم ـ فى قرطبة عام ٤٩٣ هـ (ثلاثة وتسعين وأربعمائة هجرية) وأتمها فى أشبيلية ومعروف أن هاتين المدينتين كانتا تزخران بالعلماء والأدباء وأنفس الكتب لذا فقد حبس نفسه على البحث والتنقيب وظهر تفوقه فأخذ يتمتع بحظوة وتقدير ومكنة علمية منقطعة النظير وتبوأ منزلة عالية من بين علماء أشبيلية وأدبائها • يدل على ذلك ماهو مبثوث فى ذخيرته من مخاطبات له مع أهل عصره والتى يتبين لنا منها أن شخصيته العلمية والأدبية كانت قوية فى وقته ينظر اليها أهل عصره نظرة نجلة وتقدير وكذلك الذين ذكروه من أهل المشرق كابن فضل الله العمرى (المتوفى ٧٤٩ هـ) صاحب كتاب « مسالك الأبصار » فقد وجد فيه من سعة الاطلاع وقوة الحافظة وأصالة الملكة الأدبية ما جعله يفيض بذكره ويقدمه على من ترجم لهم من أهل الأندلس إذ استهل حديثه عن الاندلسيين بقوله : « فمنهم أبو الحسن على بن بسام مميز الذخيرة وجامعها ومعير الشم تلك الأنوف وجادعها ••• وفضائل ذلك الفاضل كثيرة فلولاه ما دقت أصيل المغرب ولا انصب جدول النهار فى روضه المعشب ولا رفعت للأندلس أعلام ولا عرفت وقائع وأيام و تميزت لأهله أقدار ولا تطرقت بفضله سير وأخبار »(١٦) •

وفى مهاجره اطلع ابن بسام على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون ولاسيما كتب الأدب والتاريخ حتى إنه ليعده بعض العلماء من المؤرخين الكبار(١٧) فقد وسع عقله كثيراً من العلوم والآداب

---

(١٦) مسالك الأبصار « مخطوط » جـ ٨ ص٢٠١ .

(١٧) انظر المغرب جـ ١ ص٤١٧ .

فكان أديبا وشاعراً ومؤرخا وناقـداً ولكنه لم يختص بفـن ولم يتفوق في شيء تفـوقه في الأدب ونقـده حتى كان من أئمتـه .

وكتابه الذخـيرة خـير شاهد على ذلك . ومن أجـل ذلك فقـد أضفى عليـه ابن سعيد لقب « الرئيس الفاضل الأديب المؤرخ »(١٨).

وبعضهم خلـع عليـه لقب « الوزيـر الكاتب »(١٩) إذ صـار اسـم الوزارة عـاما لكل من يجـالس الملوك ويختص بهـم ... « وأكثـر ما يكون الوزيـر فاضلا في عـالم الأدب »(٢٠) ، بمعنى أنـه لم يتقـلد منصبا وزاريـاً في الحكومة وانمـا كان كمـا يذكر « المقـرى » أن من عـادة أهـل الأندلس أن يطلقوا على الكاتب لقب الوزير ، فالوزير هـو الكاتب(٢١) .

٢ ــ منزلتـه الأدبيـة وشخصيته في عصـره :

لقـد احتـل ابن بسـام منزلة أدبيـة سامية وظهـر تفوقه في قـوة بيـانه وجزالة لغتـه وهمـا من نتيجة عبقريته التي تجاوزت الحفـظ والدأب في التنقيب والبحث عن الخـزائن والنفائس من الكتب

---

(١٨) رايات المبرزين لابن سعيد ص٤٥ .

(١٩) تقدم أن صاحب معجم البلدان وكذلك الدكتور لطفي عبد البديع في الجـزء الذي حققه من كتاب الذخيرة قـد نعتاه بالوزير الكاتب . ولـم يعرف عن ابن بسـام أنه تقلد منصب الوزير في الدولة لا في عهـد ملـوك الطوائف ولا في عهـد المرابطين لأن العهـد الطائفي كان قـد استشرف على نهايته ولمـا يهاجر ابن بسـام الى اشبيلية بعـد . ولمـا في العهد المرابطي فلم تذكر المصـادر ذلك عنـه أو تنسبه اليـه . وكل ما نعرفه عن طبيعة عملـه ما ألمـح هو اليـه في الذخيرة في قوله : « وانا يومئذ باشبيلية اتصرف مضطرا في بعض الاعمال السلطانية » (الذخيرة ق ٤ م ١ ص١١) .

(٢٠) راجع نفح الطيب ج ١ ص٢١٧ .

(٢١) المرجع نفسـه .

واستيعاب ما فيها فكان فى ميدان الأدب فارس الحلبة وحائز قصب السبق • فلا غرو أن يكون واحد وقته لاحاطته بكثير من مصادر الأدب القيمة خاصة مصادر أدب الأندلس وحضارته وأدب المشرق كذلك •

فقد بدأ فى كتابه « الذخيرة » سامى الهمة مرتب الفكرة واضح المقصد قوى ملكة التصرف صاحب بينة وحجة محيطاً بجل مصادر الأدب الموضوعة فكان دوره فيها أن حررها وانتقدها وانتخب منها بأصالته الأدبية ما يتلاءم مع ذوقه من غير تعصب ولا ضيق أفق بل كان واسع الفكر حر الضمير معطيا كل ذى حق حقه مع جد صارم فى سائر أحواله وهو على صرامته يجمع بين القديم والجديد فهو يتراءى قديما بثقافته وسعة محفوظه من التراث ولوقوفه فى وجه الفلسفة وشعر المتفلسفين(٢٣) ، ويتراءى جديداً بمنهجه ونفاذ بصيرته لعنايته بالبديع على طريقة المجددين من أهل المشرق حيث اتخذوا البديع مقياساً تقاس به الأعمال الأدبية وعده ابن بسام « قيم الأشعار وقوامها » كما أبان عن ذلك فى

---

(٢٣) فلم يكن يعجبه شعر الشعراء وأصحاب الصياغة الفلسفية وانحى باللائمة على أولئك الشعراء الذين يتفلسفون فى أشعارهم حتى أنه وصفهم بالهذيان الذى لا طائل تحته فها هو ذا يورد للشاعر « السميسر » هذه الأبيات :

لقد نشبنا فى الحياة التى ... توردنا فى ظلمة القبر
يا ليتنا لم نك من آدم ... اورطنا فى شبه الاسر
ان كان قد أخرجه ذنبه ... فمالنا نشرك فى الأمر

ويقول : « والسميسر فى هذا الكلام من اخذ الضلو بالتقليد ونادى الحكمة من مكان بعيد صرح عن ضيق بصيرته ونشر مطوى سريرته فى غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء » (الذخيرة ق ١ ص٣٧٨) .

المقدمة حيث يقول : « وهذا الديوان إنما هو لسان منظوم ومنثور لا يدان بيان وتفسير ، أو رد فيه الأخبار والاشعار لا أفك معماها فى شيء من لفظها ولا معناها ، ولكن ربما ألمت ببعض القول بين ذكر أجريه ، ووجه عذراء أريه ، لاسيما أنواع البديع ذى المحاسن الذى هو قيم الأشعار وقوامها وبه يعرف تفاضلها وتباينها فلابد من أن نشير اليه وننبه عليه »(٢٣) .

وبذلك يكون ابن بسام قوة جديدة فى تحقيق الشخصية الأندلسية بما لها من تميز أدبى أدركها الذين عاصروه . وقد وجدنا له ما ينبىء عن منزلته الأدبية من خلال ما كان يدور بينه وبين أصحابه من أهل عصره من مكاتبات فقد حسنت طريقته وحمدت خليقته بين هؤلاء الأصحاب الذين منهم الوزراء ومنهم الأدباء والشعراء إذ تباروا بمساجلته فأخلصه الود طائفة كبيرة منهم فكان ممدحاً بألسنة هؤلاء شعراً ونثراً كالذى خاطبه به الأديب أبو العباس أحمد بن قاسم لما بلغه جمع ابن بسام لكتابه الذخيرة :

يا من تكلف جمع المجد فى ورق
أنا أناديك جهراً غيرا تعريض

ذهبت عصرك يا من شعره ذهب
بالمذهبات فأتبعنا بتفضيض

فشبه تبرك متلواً بفضتنا
جمان خود على لباتها البيض(٢٤)

---

(٢٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٦ .
(٢٤) المصدر نفسه المجلد الثانى ص٣٩١ .

وكتب اليه أيضا أبو العباس المذكور فى مثله وقد بلغه أن ابن بسام أثنى عليه بمجلس بعض الأعيان بقرطبة :

يا دوحة المجد الكريم
وسلالة الشرف الصميم
والغرة الغراء فى
وجه النثير وفى النظيم
قد كان نام زماننا
عن كشف آثار العلوم
حتى أتيت منبهاً
جفنيه تنبيه النسيم(٢٥)

وكان قد خاطبه الأديب أبو بكر بن عبادة القزاز من جملة أبيات أيام مقامه عنده بالأشبونة أولها :

يا منيفا على السماكين سام
حزت فضل السباق عن بسام
قد خبرت الورى فلم ألفهم
الا ثقال الأفهام والافهام
وتأملت منك نكتة بغدا
د لباب العراق ومعنى الشآم
شك ذهنى فى أن يرى بصرى
مثلك حتى لخلتنى فى المنام

---

(٢٥) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص٣٩٢ .

إن تحـك مدحـــة فـأنت زهـــير
أو نسـيبا فعـروة بن خـــزام(٢٦)

وكـان ابن بسـام يشاركهم بأبيـات من نظمـه وينزل عليهـم فى منـازلهم .

يقـول فى ذكـر الأديب أبى عـامر بن الأصيلى :

« وهبط إلى الأشبونة أيام كـونى بهـا وحسن مثـواه وأجزل قـراه ونزلت عليـه فى منزله مع لمـة من أهـل الأدب فلما انصرفنا عنـه خـاطب كل واحـد منـا بأبيـات يشـكر ما تهيـأ لـه من البـر فكان ممـا خاطبنا بـه قـوله :

يا دوحة العـلم والآداب والخطـب
ومن غـدا فارسـا فى حلبـة الطـلب

مـاذا تحيط بـه من عـلم مسـألة
سـألتها منـك بين الجـد واللعـب

ورد الخـدود وروض الـورد أيهمـا
أجـل عنـدك يـاذا العـلم والأدب

وقهـوة الـريق والصـهباء واحـدة
أم قهـوة الريق تخـزى قهـوة العنب

وما سـألتك عن جهـل بأيهمـا
لكن نزعت إلى شىء من الطـرب(٢٧)

---

(٢٦) المصدر نفسـه ص٣٩٤ .

(٢٧) الذخـيرة ، القسم الثالث ص٢٧٣ .

يقـول ابن بسـام : « وكـان ـ أى الأديب أبو عـامر ـ اعتمد فى مخاطبته غـلاما وسـيماً كـان يسمى « عيسى » فراجعته بأبيات قـلت فيهـا :

طـوقت كـل أديب طـوق لؤلـؤة
غرفتهـا من بحـور العـلم والأدب

لكن أخـذت روى السين من شـغف
إذ همة الليث فى المسلوب لا السلب(٢٨)

فراجعنى ثانيـة فى أبيـات قال فيهـا :

إيـه أبـا حسن يا راقـم الصـحف
ما إن أجـدنا روى السين من شـغف

لكن طربت لمـا ألقـاه من حـرق
ومـا أكـابده من شـدة الـكلف

ومـا انتفـاعى بمحبـوب أفارقـه
عمـا قريب ، ولم أربـح سوى الدنف

هـذا الذى فى الهوى قسرا يزهدنى
ولو سكت لكان العذر غـير خفى(٢٩)

وكان ابن بسـام قـد بعث بأبيـات إلى الوزير أبى الحـكم عمـر بن مزحج يهنئه بمقـدمه من بعض أسـفاره ومنهـا :

يهنى قـدومك كـلا يا أبا الحـكم
يا دوحـة العـلم والآداب والحـكم

---

(٢٨) المصدر نفسـه ص٢٧٤ .
(٢٩) المصدر نفسـه ص٢٧٤ .

مذغبت مارنقت عيـــنى الى ســـــنة
يا عمــرو الا لكى ألقــاك فى الحــلم
إن كنت فى تغــلب فى بيت ســؤددها
وكنت من مزحج فى الســؤدد العمــم
فــلم يضــر ثنــائى النسبتين وقــد
رحنــا نسيبين فى عــلم وفى فهــم
والعــذر فى زمــن أن جئت فى أمــم
لا الجيــل جيلك فاعذرهم ولا تلــم

فراجعــه بأبيات منهــا قــوله :

يامن تنــاول حــر اللفــظ من أمــم
بــذى غرارين مثــل الصارم الخــذم
لــو أن فضــلك تهـديه إلى حجــر
لمــا استجيز عليــه الوصف بالصــم
هــذى جــوارح جسمى كلهــا أذن
قــد جــاء منــك بأذنى لؤلؤ الــكلم
حاشــا لنهــلك أن تخــفى معالمـــه
وهــن أشــهر من نــار على عــلم

إلى أن يقــول :

من تغــلب أنت فى عليـــاء مركزهــا
فمن يباريك فى مجــد وفى كــرم(٣٠)

---

(٣٠) الذخــيرة ، القسم الثانى ص٢٣٦ .

كما أن له رسائل كان قد وجهها إلى أصدقائه يخطب ودهم ويستجلب ما عندهم وهى جديرة بأن ينقل بعضها بنصه لأنها مما يلقى ضوءاً على أصالة منزلته الأدبية ونبل غايته العلمية بأوفى صورة وأجلى بيان . وهاك نموذجاً من رسائله :

يقول فى رسالة بعث بها الى الوزير الكاتب أبى بكر محمد ابن ذى الوزارتين أيام أن كان بقرطبة أول سفره اليها عام أربعة وتسعين وأربعمائة : « كليبلغ ــ أعزك الله ــ من حسنات نبلك وفضلك ومعلومات حسبك ونسبك ... ومازلت أسمع فأتطلع وأستمر فأستبصر وأحن إلى مفاتحة الخطاب وكل ما يقع الا بأسباب إذ الدخول لا يكون إلا على البواب وعندهم على علمك أن الهجوم عليه دون سبب يدعو اليه نوع من الجفاء وضرب من مفارقة الحياء ولا يستجيزه إلا من كان عن الأدب بمعزل وللأمور غير محصل . فهذا الخطاب الذى قرعت به هذا الباب من مواصلتك وجعلته سلماً الى مخاطبتك أس يقوم عليه بنيان وغرس ستلتف فوقه أفنان وهمس سيكون بعده إعلان » .

ثم ختم رسالته بهذه الأبيات :

أبا بكر المجتنى للأدب
رفيع العماد قريع الحسب
أيلحن فيك الزمان الخئون
ويعرب عنك لسان العرب
لقد كان جيل الورى أدهما
بقرطبة : عجمها والعرب

إلى أن تبســـم عقـــد الزمـــا

ن فأسفر عن واضـــح ذى شـــنب(٣١)

ومع ما حظى بـــه ابن بسام من منزلة أدبية رفيعـــة ــ حسبما تقدم من خـــلال مشاعرته لطوائف من الأدباء ومخاطبته لهـــم ــ إلا أنـــه كان يعـــانى من داء الحســـد .

وقـــد حدثنا عمـــا منى بـــه فى خبـــر تصنيفه لكتاب الذخـــيرة دع غـــير واحد من أهـــل عصره إذ كـــان بعضهم يستكثر عليـــه براعته فى الابانة والافصـــاح عن نواح تاريخية بعينهـــا بألفاظ جيدة خاصـــة عندما كـــان يعـــز عليه أن يجـــد ذلك بلفظ « ابن حيان » فى كتـــابه « المتـــين » الذى ينقـــل عنـــه المـــادة التاريخية فكـــان عندئذ يستقل بتعليقاته عنـــه فيأتى بمـــا يحسد عليـــه .

وفى هـــذا يقـــول ابن بســـام : « وعلى ذلك لمـــا اندرجت لى فيـــه كلمات رائقـــات فى أوصاف مختلفات وبلغت فيـــه أمـــد المراد بألفاظ أعيان ومعـــان أفراد انثـــال على الكلام انثيال الغمام قالوا : ما وصف ابن بســـام وأتقن لو لم يستعن ، وما أحسن ما قصص لو لم يتلصـــص »(٣٢) .

والحق أنه قـــد حقد عليـــه حساده منذ ابتدأ فى تأليف كتـــابه وهـــو يومئذ فى قرطبـــة إذ منـــع بعضهم عنه نتاجهم الأدبى حـــين أراد أن يستعين بنتاجهم على تأليف مصنفه ضنابه عليه واعتقادا منهم بأنـــه إنمـــا يذهب بعملـــه الأدبى هـــذا مذهب أهـــل « الكـــدية والتكســـب »(٣٣) .

---

(٣١) الذخـــيرة ، القسم الثانى ص٢١٣ وما بعدها .

(٣٢) الذخـــيرة ، القسم الرابع المجلد الأول ص١١ .

(٣٣) الكدية : التسول والشحاذة . وكان هذا النوع سائدا فى الأندلس آنذاك وهـــو عمل يشبه ما يكون من عمـــل « الأدباتى » فى هذا الزمان حينما يقف على ابواب النـــاس فى القرى يمدحهم طالبا العطـــاء .

وما تنكر هؤلاء لابن بسام ـ هذا الوافد الغريب ـ إلا لما كانت تحتدم به نفسه من تطلع وطموح ولما تنطوى عليه أنفس بعض أدباء عصره من حسد .

ومن ذلك أنه بعث إلى أبى حاتم الحجازى يستمده من نتاجه فمنعه فكتب اليه : « ولما كنت أبا حاتم خاتمة هذا الشأن أحببت أن أجعل كلامك من واسطة هذا الديوان إلا أنى رأيت لك من الامتناع بتلك الرقاع ما حدست أنك قلت : هذا ابن بسام كما أخرجته الروم من بلاده وصفرت يده طارفة وتالدة وقدم قرطبة على قدم الضرورة بتلك الصورة ربما شحذ المدية فى أبواب الكدية فاتخذ تقييد هذه الشذور القلائد سببا لأن يسبى عذارى القلائد فى حجر أربابها ويسلبها عن أصحابها ، ولقد أبعدت إن كنت ظننت فى ذلك . وكلا أبا حاتم فانك لى لعين الظالم وقد شهد الأشهاد بتلك البلاد أن لى بديهة قوية تربى على الرويـة »(٣٤) .

---

(٣٤) الذخيرة ، القسم الثالث ص٢٠٤ وما بعدها .

ابن بســـام ومنهجـــه النقـــدى

امتـــاز ابن بســـام بروح نقـــدية أصيلة حيث كان لا تستغرقه ألفـــاظ الاطـــراء والتقريظ فهـــو ـــ فى الترجمة مثـــلا ـــ يقف عند الشخصية ـــ ســـواء فى الأدب أو فى التاريخ ـــ يصفها ويحللها ويأتى على أهـــم ما يلتفت اليـــه فيهـــا بحيث لا يغادرهـــا الا وقـــد تنقل فى نواحى الوصف فيهـــا : من الخلق الشخصى الى الموهبة الأدبيـــة والفنيـــة الى الوقائع التى تضافرت فى بنـــاء تلك الشخصية ونمـــت فيهـــا تلك المواهب الأدبية لا يكـــاد يجاريه فى مضماره أحـــد من معاصريه أو ممن جـــاءوا بعـــده إذهـــو فى ذلك يجمع الى أصالة الأديب وفنـــه احساس المـــؤرخ ونفـــاذ بصيرته •

لقـــد عـــرف ابن بســـام أصول الأدب والنقـــد حين أراد أن يستجلى صـــورة ما فى شـــعر أهـــل الأندلس وبيان موضوعاته وابراز خصائصه الفنيـــة بالنظر الى الشـــعر المشرقى حتى يعـــرف النادس أن للأندلسيين نتاجاً أدبيـــا هـــو فى مستوى نتاج المشارقة أو ممـــا يتفوق عليـــه أحيـــاناً • كل ذلك فى موضوعية وعـــرض دقيق فيمـــا يورده من نصوص أدبيـــة يسعفه حضـــور ذهنى عظيم وقدرة فائقة على الربط فى مختلف أنواع الأدب فى الاندلس والمشرق على السواء •

لم يبـــن ابن بســـام منهجه فى النقـــد على أساس نظرى يعتمـــد على تقصى أوجـــه النقـــد الأدبى ، وإنما بنـــاه على أساس تطبيقى يقـــوم على النظـــر فى بعض القضايا الشعرية وفى البديـــع بألوانه

المختلفة والصدق الخلقى فى إطار نزعة أخلاقية : دينية واجتماعية ثم فى موقفه من الفلسفة والشعر الفلسفى وفى المحافظة على عمود الشعر وفى البديهة والارتجال .

وعلى ذلك نستطيع أن نحدد منهج ابن بسام النقدى من خلال ماله من مواقف نقدية وتعليقات فى هذا المجال ـ ستأتى ـ بأنه ينحصر فى ثلاثة اتجاهات رئيسية وهى :

(أ) الاتجاه الأول : اتجاه اجتماعى أخلاقى تمثل فى موقفه من الشعر الفلسفى والهجائى وفى تعليقاته النقدية حول الصدق الشعرى والتثبيت فيه .

(ب) الاتجاه الثانى : اتجاه فنى جمالى تمثل فى جعله البديع مقياساً للعمل الأدبى فهو ميزان الجودة أو الرداءة إذ هو ـ أى البديع ـ « قيم الأشعار وقوامها وبه يعرف تفاضلها وتباينها »(٣٥) .

(جـ) الاتجاه الثالث : اتجاه نقدى قائم على دراسة التاريخ الأدبى والذى من أبرز مظاهره البحث فى السرقات الادبية .

القضايا النقدية فى عصر ابن بسام واتجاهاته فيها

بعد أن حددنا منهجه النقدى واستطلعنا ـ من خلال تعليقاته النقدية التى سنذكرها ـ أن نحصره فى اتجاهات ثلاثة ـ ننتقل بعد الى الحديث عن القضايا النقدية لعصره والمنحى الذى نحاه ابن بسام فى معالجة تلك القضايا واتجاهاته فيها مقتصرين فيها على مايلى :

---

(٣٥) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٦ .

(أ) النزعة الأخلاقية :

وقد وضحت معالم هذه النزعة ـ كما أشرنا قبل قليل ـ عند ابن بسام فى موقفه من الشعر الهجائى الذى حاول أن يخلى كتابه منه . وفى موقفه من الشعر الفلسفى كذلك إذ وجدناه يتحرج فى مقاييسه النقدية بل ويضيق كثيراً بكل شعر يلمح فيه استخداماً للمصطلح الفلسفى .

وقد انعكس أثر هذه النزعة الأخلاقية على اتجاهه النقدى فأخذ بالصدق العقلى بل تشبث به إلى جانب الصدق الاجتماعى والأخلاقى ، ولم يلتفت كثيراً الى الصدق الفنى فى احساس الشاعر وإنما أخذ بهذا القول : « خير الشعر أصدقه » كما شرح ذلك عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « أسرار البلاغة » فناقض بذلك قول من قال : « خير الشعر أكذبه » وألح على الشاعر أن يترك الاغراق ويعتمد ما يجرى من العقل على أصل من الواقع(٣٦) .

وبذلك تأتلف جهود ابن بسام مع جهود ناقدين مشرقيين هما : الآمدى المتوفى ٣٧١ هـ ، وعبد القاهر الجرجانى المتوفى ٤٧١ هـ على رفض قول من قال : « أعذب الشعر أكذبه » حيث يقول الآمدى : « وقد كان قوم من الرواة يقولون : « أجود الشعر أكذبه » ولا والله ما أجوده إلا أصدقه »(٣٧) .

ذلك أن ابن بسام رجل أخلاقى يؤمن بالحق والمبدأ

---

(٣٦) انظر أسرار البلاغة لعبد الظاهر الجرجانى ص٣٠٨ .

(٣٧) الموازنة للآمدى جـ ٢ ص٥٨ .

وأهميتهما فى التوجيه والارشاد فهو يرى ذلك مطلبا دينياً واجتماعيا لا ينبغى للشاعر أن يحيد عنه أو يموه فيه .

ولذلك فانه عندما يسمع قول الشاعر « أبى بكر الدانى » يبتعد عن الصدق الواقعى تثور ثائرته « لهذا البهتان والادعاء الكاذب » — على حد قوله — كما فى هذين البيتين :

فى نصرة الدين لا أعدمت نصرته
تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعماً فى طيها نقم
سيستضر بها من كان ينتفع

ويعلق على ذلك بقوله :

« وهذا مدح غرور وشاهد زور وملق معتف سائل وخديعة طالب نائل وهيهات !! بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم حين أيقن النصارى بضعف المنن وقويت أطماعهم بافتتاح المدن واضطرمت فى كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم »(٣٨) .

ولا نقول إن ابن بسام فى وقفته هذه قد أراد أن يحد من أخيلة الشعراء ويضعها فى قوالب معينة لا يتخطونها ، فانه إنما ينافح عن الفن ويعصمه من أن يسف أو يسقط به صاحبه تحت شعارات « التمويه وقلب الحقائق » وإنما أراد أن يقف ضد هذا التمويه الشعرى الذى يسوغ الباطل ويلبسه ثوب الحق بعيداً عن كل صدق واقعى .

---

(٣٨) الذخيرة ، القسم الثانى ص١٠٢ .

(ب) الفلسفة والشعر :

ويبدو أثر هذه النزعة بوضوح فى موقفه من المعانى الفلسفية فى الشعر حيث كان له موقف من الفلسفة والمتفلسفين ينسجم مع منزعه الدينى والأخلاقى ، ولذا فلم يك يعجبه شعر الشعراء أصحاب المعانى والصياغة الفلسفية فأنحى باللائمة على أولئك الشعراء الذين يتفلسفون فى أشعارهم أو ترد المصطلحات الفلسفية فيها .

وقبل أن نحاول تحديد الأبعاد التى تقوم على أساسها نظرة ابن بسام النقدية فى هذا الاتجاه الفلسفى نشير الى أن المرثية كانت هى المجال الخصيب لبيث فيها الشاعر آراءه الفلسفية فيما يتعلق بمشكلة الحياة أو الموت وطبيعة النفس البشرية التى يحملها عنصرا « الماء والتراب » كما يقول عبد الجليل بن وهبون المتوفى ٤٨٤ هـ أحد شعراء بنى عباد :

ما النفس الا شعلة سقطت إلى
حيث استقل بها الثرى والماء

من قصيدة طويلة فى رثاء أبى الحجاج يوسف بن عيسى المعروف بالأعلم وأولها :

سبق الفناء فما يدوم بقاء
تفنى النجوم وتسقط البيضاء

تأثر فيها ابن وهبون بالمتنبى وأبى العلاء فيما ذهبا إليه من صفة النفس وخلودها . كما يقول عبد الله بن الحداد :

والنفس عادمة الكمال وإنما
بالبحث عن علم الحقائق تكمل

والمـرء مثـل النصـل فى إصـدائه
والجهـل يصـدى والتفهـم يصـقل

وكذلك هذه الأبيات للشاعر السميسر التى تنبىء عن حيرته وتشككه :

مـن كـان مخلوقـاً من الأرض إذ
ركـب لـم يطـلع عـلى السـر
حـتى تـرى الجثـة مطروحـة
والنفـس فى عالمهـا تسـرى
فعندهـا يأمـن مـا يتـقى
وعندهـا يعـلم بالأمـر
هـذا عـلى مذهبنـا ثـم قـد
قيـلت مقـالات ولا أدرى
لقـد نشـبنا فى الحيـاة التى
توردنـا فى ظلمـة القبـر
يـا ليتنـا لـم نـك مـن آدم
أورطنـا فى شـبه الأسـر
إن كـان قـد أخـرجه ذنبـه
فمالنـا نشـرك فى الأمـر ؟!

وقـد وصـف ابن بسـام مثـل هـذه الأشعار بالهذيان الذى لا طائل تحتـه فـانه بعـد أن أورد هـذه الأبيات المتقدمة للسميسر قـال :

« والسميسر فى هـذا الكـلام ممن أخـذ الغـلو بالتقليد ونادى الحكمـة من مكـان بعيـد ، صـرح عن ضيق بصيرته ونشر مطوى

سريرته فى غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع ولعله أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء »(٣٩) .

وهذا الموقف النقدى لابن بسام تجاه الشعر الفلسفى يمكن أن نرجعه الى أمرين :

الأمر الاول : وثيق الصلة بنظرة العصر حيث ظلت النظرة الأندلسية قائمة على التشكك فى الفلسفة والتنكر لها بل ومقاومتها أحياناً خاصة فى عصر المرابطين . فقد وقف التيار الدينى فى وجه هذا الاتجاه المتفلسف بقوة ، ولا نشك فى أن ابن بسام أيد بكل قوة هذا التيار السائد فى موقفه من الفلسفة .

أما الأمر الثانى : فيرجع إلى ثقافة ابن بسام ذات الاصول المشرقية ، وقد كان الاتجاه المعارض للفلسفة فى الشعر فى البداية مشرقياً . والحقيقة أن هذا الشعر الفلسفى الأندلسى كان يضم الآثار الفلسفية المشرقية فى كثير من مناحيه وخاصة فى معالجة مشكلة الحياة والموت وطبيعة النفس كما رأينا فى قصيدة ابن وهبون والتى سبق أن ذكرنا نموذجاً منها ..

هذا عن الاتجاه الفلسفى فى الشعر ومحاولة الأندلسيين احتذاء المشارقة فيه . أما عن الأصول المشرقية فى نظرة ابن بسام النقدية لهذا الاتجاه فيمكن الاهتداء اليها من كتاب (الموازنة) للآمدى . ذلك أن للآمدى فى ماوزنته موقفاً متشدداً فى هذا المجال . وعلى ذلك سنجد أنهما يتشابهان فى كثير من الأمر كما يظهره هذان التعليقان لهما — أى للآمدى وابن بسام — يقول الآمدى :

---

(٣٩) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٣٧٨ .

« قالوا : وإذا كانت طريقة الشاعر هذه الطريقة ــ أى طريقة الفلسفة ــ وكانت عيوبه مقصرة عنها ولسانه غير مدرك حتى يعتمد دقيق المعانى من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس • ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونهج مضطرب وإن اتفق فى تضاعيف ذلك شىء من صحيح الوصف وسليم النظر قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيماً أو سميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعراً ولا ندعوك بليغا لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم »(٤٠) •

فالشعر عند الآمدى لا يكون شعراً إلا بهدى من طريقة العرب وأساليبهم الموروثة • وذلك أيضاً ما يراه ابن بسام فى الشعر الفلسفى إذ فيه خروج عن « رونق كلام الأعراب » ومذاهبهم كما يستنتج ذلك من تعليق لابن بسام على أبيات فلسفية أوردها لأبى عامر الشنترينى فى رثاء نفسه ، والابيات هى :

يا لقومى دفنونى ومضوا
وبنوا فى الطين فوقى ما بنوا

ليت شعرى إذ رأونى ميتاً
وبكونى أى جزأى بكوا

أنعوا جسمى فقد صار الى
« مركز التعيين » أم نفسى نعوا ؟!

كيف ينعون نفوساً لم تزل
قائمات بحضيض وبجو

ما أراهم ندبوا فى سوى
فرقة التأليف إن كانوا دروا

---

(٤٠) الموازنة ص٤٢٤ وما بعدها •

يقول ابن بسام معلقاً : « وهذا معنى فلسفى قلما عرج عليه عربى ، وإنما فزع اليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب وعدموا رونق كلام الأعراب فاستراحوا إلى هذا الهذيان ، وقد قال بعض أهل النقد(٤١) : انه عجيب فى الشعر والنثر أن يأتى الشاعر أو الكاتب بكلام الأطباء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء »(٤٢) .

ويتابع ابن بسام تعليقه فيقول : « وإنى لأعجب من أبى الطيب على سعة نفسه وذكاء قبسه ، فانه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الأسباب وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال إليه ايضاعه »(٤٣) .

هذا ما يراه ابن بسام فى الشعر الفلسفى . وجملة القول أن ما يتجشمه الشاعر من التعمق الفلسفى أو التأليف المنطقى إنما هو — عنده — قيد يتقيد به الشاعر يبعده عن صدق التعبير وسماحته ويقف به حائلا دون انطلاق الفكر معه وتجاوبه وإياه إذ لا يرى فيه شعراً ينطلق من داخل الوجدان وإنما هو فكر صيغ شعراً .

(ج) الموازنة والتحليل :

يقوم منهج ابن بسام فى تحليل الشعر على ما فيه من المعانى البلاغية : من توليد أو تقسيم أو زيادة فى التشبيه ، أو لما فيه من إشارات تاريخية أو ظواهر طبيعية أو لما فيه

---

(٤١) يريد ببعض أهل النقد : الآمدى وما قاله فى الموازنة فى هذا الاتجاه
(٤٢) الذخيرة ، القسم الثانى ص ١٩٤ .
(٤٣) المصدر نفسه ص ١٩٥ . والايضاع : نوع من الجرى ومثله الوخد

من التبريز فى اللفظ والمعنى أو لما فيه من التلميح إلى العاطفة الدينية .

وكان يسوق مافى نقده ، التطبيقى على أساس من وحدة البيت من غير أن يتطرق الى وحدة القصيدة وما تتضمنه من معان طبيعية أو قيم إنسانية .

ونبدأ بمثل تطبيقى يلقى الضوء على كثير من المنهج الذى سار عليه فى تحليل النصوص وموازنتها وبيان ما فيها من حسن أو قبح وتمييز جيدها من رديئها وصحيحها من فاسدها ، وسنرى أن منهج ابن بسام فى هذا الصدد يجتمع له فيه النقد الأدبى والناحية الجمالية واللغوية والاتجاه الدينى والاشارات التاريخية .

يدور هذا المثال ــ كنموذج لما أشرنا اليه فى خطة منهج ابن بسام ــ حول قصيدة طويلة للوزير الكاتب « حسان ابن المصيصى » مما مدح به المعتضد بن عباد ، وأولها :

من استطال بغير السيف لم يطل
ولم يخب من نجاح سائل الأسل

ومنها هذا البيت :

حاز المؤيد مما قلت أفضله
وزاد للفرق بين القول والعمل

فيستحسنه ابن بسام ويطريه بقوله : « وهذا البيت مما يبعد شأوه وفاق سروره وتجاوز أكثر الحد عنوه » .

ومنها هذا البيت أيضاً :

تعطى الهواء منن الأرض غرته
نوراً ونوراً عطاء الشمس فى الحمل

فيثنى عليه ابن بسام لما فيه من توليد وإجادة فنية ويقول : « وهذا البيت لحسان من حسنات شعره وأبين آيات ذكره • فيه توليد شهد أنه شاعر مجيد » ثم يمضى فى الثناء على ما أبدع فيه حسان من قصيدته التى منها هذا البيت فى ذكر النجوم وهو :

تنهاه عفته عن أمر بطشته
فالمشترى عنده قاض على زحل

« وهذا البيت أيضاً من مليح المنظوم وله اختصاص حسن بأحكام النجوم » ثم يلتفت الى ما برز فيه حسان من لفظ ومعنى كما فى تعليقه على هذا البيت :

جر الذيول ولكن من جحافله
على القتاد ولكن من شبا الأسل

« وهذا البيت أيضاً مما برز فيه حسان فى لفظه ومعناه وأراده كثير من الشعراء فأعياه » •

وعلى هذا النحو من الدقة فى الاستقراء لأبيات القصيدة يسترعى انتباهه الناحية الدينية التى يلمحها فى هذا البيت :

قد يدخل المسلم المخطى الجنان غدا
بنيتى أرتجى الغفران لا عملى

فيقـــول : « وهـــذا البيت ممـــا أخلص فيـــه بغيتـــه وحســـنت بخالقـــه ظنـــونه وعسى الله أن يبلغـــه مآلهـــا فـــرب مرحـــوم بكلمة قالهـــا » .

ويقـــول ابن المصيصى فى القصيدة نفســـها بيتـــا يستثير حميـــة ابن بســـام لمـــا فيـــه من اشارات تاريخية مغلوطـــة نسجت حـــول « حســـان بن ثابت » ـــ رضى الله عنه ـــ فيحاول أن يدحض هـــذه التهمـــة العالقة بـــه بشىء من الاستنباط العقـــلى والحجاج المنطقى المؤيد بالوقـــائع التاريخية وهى أنهـــم ينسبونه الى الجبـــن كمـــا فى هـــذا البيت :

وما الحـــروب ومثلى أن يشـــاهدها
وانمـــا أنـــا حســـان وأنت عـــلى

فيقـــول ابن بســـام :

« وأظن حسانا هـــذا ـــ يقصد حســـان بن المصيصى ـــ لم يكن لـــه عـــلم بالســـير ولا تصـــرف بعلم الخبـــر . وقد رأيت جمـــاعة من أهـــل الأدب ينسبون حســـان بن ثابت ـــ رحمه الله ـــ الى الجبن فيخرجونه من أهـــل الضـــرب والطعن . يحتجون فى ذلك بقعـــوده عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى مغـــازيه وسراياه وينشدون لـــه فى ذلك شـــعراً أظنهم نحـــلوه إيـــاه ولا أمترى أنهـــا منحولة اليـــه ومفتعلة عليـــه . ومن أبلـــغ حجتهم على ذلك حديثه فى شـــأن اليهودى يـــوم الأحـــزاب(٤٤) .

---

(٤٤) روت بعض كتب السيرة أن بنى قريظة لمـــا نقضوا العهد مـــع الرسول ﷺ وحزبوا الأحزاب ضد الرسول عليه الصلاة والسلام أرسلوا ـــ

ومن أدل شيء على ذلك أنه حاجى فى الجاهلية والاسلام أكثر من ثمانين شاعراً لم يصفه أحد بالجبن ولا عيروه به ولم يكن شيء يتعايرون به أشد من الجبن .

ولحسان أيام مشهورة ومواطن فى الحروب مذكورة وقد أولع ابن المصيصى بهذا المعنى فأعاده وأبداه وألحه وأسداه وأعجبه ما اتفق له منه حتى أخرجه الى ماكان فى مندوحة عنه فقال من قصيدة يمدح بها المعتضد وذكر نفسه وابن عمار :

كأن أبا بكر أبو بكر الرضى
وحسان حسان وأنت محمد

فأراد أن يعرب فأعجم وأحب أن يضيء فأظلم ونعوذ بالله من الخطل فى القول ونبرأ اليه من القوة والحول(٤٥) .

= جاسوسا الى خيام النساء فأبصرته السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ فقالت لحسان اقتل هذا الجاسوس حتى لا يكشف امرنا فقال حسان ـ رضى الله عنه ـ انت تعلمين اننى لا اجيد مثل هذا العمل فأخذت عمودا من الحديد وقتلت اليهودى ثم قالت لحسان خذ سلبة فقال : انا لست بحاجة الى سلبة .

وتفيد هذه القصة ان حسانا كان جبانا حيث لم يخرج مقاتلا مع المسلمين وانما قعد مع الخوالف وزاد من جبنه انه لم يتقدم لقتال اليهودى ولم يأخذ سلبة .

غير ان هذه القصة ـ فى اعتقادنا ـ انها مختلقة على حسان لما ذكره ابن بسام من انه هجا فى الجاهلية والاسلام اكثر من ثمانين شاعرا ولم يصفه احد بالجبن ولا عيره به احد ولم يكن شيء يتعايرون به اشد من تلك الصفة .

(٤٥) انظر الذخيرة ، القسم الثانى من ص١٧٦ ـ ص١٨٩ .

وثمة تعليقات نقدية كثيرة تلقى الضوء على المنهج النقدى لابن بسام وهى تعليقات وخواطر نقدية كان يقولها كلما كان إلى ذلك سبب .

وهو فى هذه التعليقات والتحليلات يدلل على أنه يصدر عن أصالة فنية واحساس صادق بمواطن الكلم ومعانيه . وليس يخبط خبط عشواء جرياً وراء شهوة النقد والموازنة بين معانى الشعراء بل نستشعر فى تعلقياته الأناة والروية والتثبت فيما يقوله .

ومن أمثلة هذه التعليقات النقدية ـ عدا ما تقدم ـ ماله فى الموازنة بين الأدباء إذ كان يولى هذه الناحية اهتماما ملحوظا .

يقول فى الموازنة بين ابن برد وابن فتوح : « وابن فتوح هذا كثير الاهتدام لأشعار سواه . قبيح الاخذ فى كل ما انتحاه ، وشعره كثير البرد ، وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد مابين القطب الثابت والقصب النابت ، وأكثر شعر ابن برد مليح السرد متمكن القوافى ، لا تكاد له قافية تخرج عن مركزها . وقوافى ابن فتوح قلقة موضوعة فى غير مكانها نازلة فى غير أوطانها »(٤٦) .

وهو يعجب بحر الكلام وبالاستعارة المونقة والاشارة الرقيقة والاتيان بالتشبيه دون أداة والاصابة فى الاشارة إلى التشبيه . ويفهم ذلك من تعليقاته على بعض ما يورده من أشعار لتراجمه فانه بعد أن أورد الأبيات الآتية المرتجلة للوزير الفقيه أبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج وهى :

---

(٤٦) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص٢٧٤ .

عمـــرى أبـــا حسن لقـــد جئت التى
عطفت عليـــك ملامـــة الاخـــوان

لـــــا رأيت اليـــوم ولى عمـــــره
والليـــل مقتبـــــل الشـــبيبة دانـــى

والشمس تنفض زعفراناً فى الـــربى
وتفـــت مســـكتها عـــلى الغيطـــان

أطلعتهـــا شمســـاً وأنت عطـــارد
وحففتهـــــا بكـــواكب الندمـــان

يعـــلق عليهـــا بقوله : « وهـــذا رواء الديباج الخسروانى ورونق العصـــب اليمانى ولمثـــله فلتنشرح الصـــدور وتتشوق السرور ويذعن المنظـــوم والمنثـــور • ألا ترى ما أنق استعاراته وأرشـــق إرشاداته وأقـــدر على الاتيان بالتشبيه دون أداتـــه»(٤٧) •

وقـــد فرق بين شـــعر الوجدان وبين شعر العلماء فأوضح أن الأول شـــعر قوى لانه نابـــع من القلب ومصدره العاطفة الجياشـــة والاحساس المتدفق ، أما الثـــانى فضعيف وهـــن بين التكلف وفى ذلك يقـــول : « على أن أشعار العلمـــاء على قديم الدهـــر وحديثه بينـــة التكلف وشعرهم الذى روى لهـــم ضعيف حاشا طائفة منهـــم »(٤٨) •

وهـــو فى هـــذا قـــد أوضح منهجه العـــام الذى ينظر من خلاله إلى الشـــعر • ومـــا يوضح هـــذا المنهاج أيضـــاً أنه كان يعمـــد فى بعض الأحيان الى الشـــرح • ومن ذلك قـــوله شارحاً بيتـــا من قصيدة لابن دراج القسطلى :

---

(٤٧) الذخـــيرة ، القسم الثانى المجلد الثانى ص٣٢٠ وما بعدها .
(٤٨) المصدر نفســـه .

حتى بـدا الصبح مشمطاً ذوائبـه

يطارد الليـل موشـياً أكارعه(٤٩)

يقـول ابن بسـام : « قـوله (موشياً أكارعه) جعـل ذوائب الصبح مشمطة من ممازجة الليل لـه وجعل أكارع الليـل موشية من ممازجة الصـبح لهـا وجعل آخـر الليل من مواخره وهى المتصلة بأول الصبح وآخـر الصبح من مقـاومه وهى المتصلة بآخـر الليل وأصـاب فى الاشارة الى التشبيه لأنـه أومـأ الى الصبح كالثـور الوحشى وهـو أبيض والثيران الوحشية كلهـا بيض وأكارعها موشية على وجـه الخصوص » .

وإنمـا الـم القسطلى فى هـذا بقـول أعرابى يصف ليـلة فيقول : « خرجنا فى ليـلة حندس(٥٠) قـد ألقت على الأرض أكارعها فمحت صـور الأبدان فما كـدنا نتعارف إلا بالآذان »(٥١) .

ويستمر ابن بسـام فى تعليقاته النقـدية على هـذا النحـو من التفهـم الدقيق وبسـط الأدلة . ففى أثنـاء فصول من ترجمـة للأديب « أبى بكـر يحيى بن بقى » يورد لـه هذين البيتين :

عليـك أبـا عبد الالـه خلعتهـا

لهـا البـدر طوق والنجوم دلائـل

وما هى إلا الدهـر فى طول عمرهـا

وإن لم يكن فيهـا الضحى والأصائل

---

(٤٩) الشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والذوائب جمع ذؤابة وهـو مقدم شعر الرأس ، والأكارع جمع كراع وهـو مستدق الساق يذكـر ويؤنث « القاموس مادة شمط وكرع » .

(٥٠) ليلة حندس : شديدة الاظلام .

(٥١) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٦٩ .

ويعلق على البيت الأخير منهما بقوله : « فيا لهذا البيت !! ما أحسن مذهبه وأبدع مشواه ومنقلبه الا أنه أتى بالدهر مسلوب الضحى والأصائل فلم يزد على أن جلاه فى زى عاطل لا بل أبرزه فى مسوح شوهاء تأكل وليت شعرى أى شيء أبقى للدهر المظلوم بعد ضحاه الناصعة الأديم وآصاله المعتلة النسيم هل بقى إلا ليله الأسود الجلباب وهجيره السائل اللعاب ولو قال لممدوحه : (وتلك العلا فيها الضحى والاصائل) لأبرز قصيدته زفافة البرود شفافة العقود »(٥٢) .

وله فى بعض تعليقاته النقدية مواقف تظهره على أنه يتحرى القواعد الموضوعة إذ أنه لا يسوغ للشاعر أن يخرج عنها أو يجافيها أو يستغرقها فى نظمه لئلا تبدو بعيدة غير مستساغة . وهو فى ذلك يستوى عنده الشاعر من أهل أفقه أو من غيره كما فى تعليقه على الاستعارة البعيدة ونفوره منها إذ أخذ على « ابن ثماخ » استعارته « كيساً » للكلام فى قوله :

فلولا علاه عشت دهرى كله
وكيس كلامى لا أحل له عقداً

وعد ذلك من مضحكات الأنام(٥٣) .

وقدح فى المتنبى لخروجه فى الاستعارة الى حيز البعد بقوله :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقها
وحسرة فى قلوب البيض واليلب

---

(٥٢) الذخيرة ، القسم الثانى ص٢٥٣ .
(٥٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص٣٣٥ .

حيث جعـل للطيب واليلب والبيض قـلوباً(٥٤) .

وهـكذا . تكشف لنـا تعليقاته النقـدية عن ملكة فنيـة فيـه نجلت فى أوضـح كـلام وأحـلى بيـان .

(د) المحسـنات البديعيـة :

اهتـم ابن بسـام بالبديـع وبالصنعة البديعية اهتماما بالغـاً حتى إنـه جعـله ـ أى البديـع ـ مقياساً يقيس بـه العمل الأدبى لتمييز جيـده من رديئه فهـو عنده « قيـم الاشعار وقوامها وبـه يعـرف تناضلها وتباينهـا »(٥٥) .

واهتمامه بالبديـع يرجع الى أنـه كان يحاول أن يظهر المحاسن لأهـل الاندلس ممـا هـو مخترع مبتدع من أنواع المعانى والخيـال فى الشـعر والنثـر .

ولقـد ألزمـه هـذا المنهـج بأن يلتفت الى الموازنة بين أشعار المشارقة والأندلسيين فكان يأتى بالامثلة من هنـا وهنـاك دون أن يضـيف الى ألـوان البديـع ـ السابقة على عصـره ـ شيئا وإنمـا كان يبحث فى أصـول هـذا الفـن عند من تقدمه فكان يجمع شواهده وأمثلته ـ موجـزة مركـزة ـ من خـلال مصطلحات بديعية عرفهـا المشارقة وذكرها ابن رشـيق فى كتابه العمـدة فكان يأخذها بالنص أو بالتلخيص ممـا يـدل على أن كتـاب (العمـدة) كان معتمـد ابن بسـام فى هـذا المضمار .

---

(٥٤) المصدر نفسـه ص٣٣٦ . واليلب : الدروع (يمانيـة) ؛ والبيض : الخوذات .

(٥٥) الذخـيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٦ .

وعلى هـذا الأساس يمكننـا أن نقـول : إن طبيعة المنهج الذى سلكه ابن بسـام فى تتبع أنواع البديـع لجعلها مقياساً للعمـل الأدبى كـان تعقبـا واستقصاء للنمـاذج البديعية لمحاسن أهـل أفقـه •

ومن المناسب أن نتناول بالذكـر المصطلحات البديعية التى ألمـح إليها ابن بسام • من تلك المصطلحات الالتفات والاعتراض والاستدراك والتتميـم والمبالغة والايغال وغيرها ممـا سنذكره بعد قليل فقد نظـر فى هـذه المصطلحات وقلب ما احتوته هـذه المصطلحات من معـان وألفـاظ عند أصحابها الأوائل من الشعراء ففى حديثـه عن شـعر أبى العـلاء بن زهـر نـراه يستطرد الى قـول كثـير عـزة :

لـو ان الباخـلين وأنت منهـم
رأوك تعلمـوا منـك المطـالا

ويقـول : فقوله « وأنت منهـم » التفـات • وقـد سماه ابن المعتـز اعتراضاً وجعـله بابا على حـدته بعد الالتفات وغيره جمـع بينهمـا ، وقـال النابغـة :

ألا زعمـت بنـو عبـس بـأنى
ألا كـذبوا كبـير السـن فـان

فقـوله « ألا كـذبوا اعتراض »(٥٦) •

وقـد مثـل للاستدراك بقـول ابن عطـاء السندسى يرثى يزيد ابن عمـر بن هبـيرة :

وإنـك لـم تبعـد عـلى متعمـد
بلى كـل من تحت التراب بعيد(٥٧)

---

(٥٦) الذخـيرة ، القسم الرابع المجلد الاول ص٣٠ •
(٥٧) الذخـيرة ، القسم الثانى ص٩٣ •

وعندما أنشـــد بيت طـــرفة :

وســـقى طلولك ـــ غـــير مفسدها ـــ

صـــوب الربيـــع وديمـــــة تهمى

تتبـــع هـــذا المعنى لدى ذى الرمـــة فى قـــوله :

ألا يا أسلمى يا دار مى على البـــلى

ولازال منهـــلا بجرعـــائك القطـــــر

ويقـــول : « لأن فى مداومة الانهلال تعفيـــة الرسوم ومحـــو الآيات على أنـــه قـــد احترس من الاعتراض إحتراساً قدمه فى صـــدر البيت وهـــو قـــوله « اسلمى » فدعـــا لهـــا بالسلامة على تعـــاقب الأمطـــار الموجبة بـــلاء الديـــار واندراس الآثـــار وبيت طرفة أســـلم وهـــو الذى فتـــق للشـــعراء هـــذا الفتق فاقتفوا فيـــه وجـــاءوا بالاحتراس ؛ وغـــيره المـــلك الضليل ـــ يعنى امـــرأ القيس ـــ حيث يقـــول :

إذا ركبـــوا الخيـــــل واســـتلأموا

تحـــرقت الأرض واليـــوم قـــــــر

يقـــول ابن بســـام : « فقـــوله : (واليوم قـــر) تميـــم للمعنى ومبالغـــة فى اللفـــظ ومن هـــذه المبالغة أيضـــاً فى التميـــم قـــول امـــرىء القيـــس :

كأن عيـــون الوحش حـــول خبائنـــا

وأرحلنا الجـــزع الذى لـــم يثقـــب

ويعـــلق على ذلك بقـــوله : « ويسمى أصحاب البديـــع ما كـــان

مخصوصاً من هـذا النـوع بالقافية الايغـال والتتبيع وما كان فى أضـعاف البيت المبالغة والتميـم »(٥٨) .

ويذكـر أنواعـاً بديعية أخـرى مما يضمها باب الاشـارة ، ويقـول : « وهى ـ أى الاشـارة ـ من غرائب الشـعر وملحـه وتـدل على بعـد المرمى ، وليس يأتى بهـذا إلا الشاعر المبـرز المـاهر ، وهى فى كـل نـوع من الكلام لمعـة دالـة واختصـار وتلويـح »(٥٩) .

ويذكـر أنواعـاً منهـا كالايماء من مثـل قـول أبى اسحاق إبراهيم بن المعـلى :

لبسـوا الحديد الى الوغى ولبسـتم
حـلل الحـرير عليـكم ألوانـاً
ما كـان أقبحهـم وأحسنكم بهـا
لو لـم يكن بطـرنة ما كانـا(٦٠)

فالشـطر الأخـير من البيت الثـانى إيمـاء اذ أنـه يومىء بـه الى ما وقـع منهـم من سـوء فعـل فى « بطـرنة » .

ومن مثـل قـول أبى الوليد محمـد بن يحيى بن حـزم :

فأبحت سرج اللهـو مرتاد الهـوى
ومنعت طـير الوجـد أن يترنمـا

---

(٥٨) الذخـيرة ، القسم الثالث ص٢٦٨ .
(٥٩) المصدر السابق ص٢٧٠ ، نقلا عن ابن رشيق ، أنظر العمـدة جـ ٢ ص٣٠٣ ـ ص٣١٢ باب الاشارة .
(٦٠) المصدر نفسـه ص٢٦٩ .

وقد علق ابن بسام عليه بقوله : « ومنعت طير الوجد أن يترنما » من لطيف الاشارة ومليح الاستعارة : أو مأبه الى الكتمان إيماء يأخذ بمجامع البيان »(٦١) .

ثم يذكر أنواعاً أخرى من الاشارة كالتلويح فى مثل قول قيس بن معاذ « مجنون ليلى » :

لقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل
بى النقض والابرام حتى علانيا

ويقول : « ومنها ما جاء على التشبيه كقول الراجز يصف لبنا ممذوقاً :

حتى إذا جن الظلام واختلط
جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

فأشار الى تشبيه لونه لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب(٦٢) .

ومنها المعاقدة وهى أن يشترط الشاعر شروطا فى معان يريد التوفيق بينهما فيعقد لكل صقف منها ما يشاكله ويماثله كما فى قول المجنون أيضاً :

وأدنيتنى حتى إذا ما سبيتنى
بقول يحل العصم سهل الأباطح

تجافيت عنى حين لالى حيلة
وخليت ما خليت بين الجوانح

---

(٦١) الذخيرة ، القسم الثانى ص٢٤٢ .
(٦٢) انظر الذخيرة القسم الثانى ص٢٧١ .

فعـاقد بين قوله « أدنيتنى وتجافيت عنى حيث تشـابها رسماً وشـكلا » وعـاقد أيضـا بقـوله « وخليت ما خليت » وبقـوله « يحـل العصـم سـهل الأباطح »(٦٣) .

ومن مليـح هـذا ـ لبعض أهـل الأندلس ـ قـول يحيى ابن هـذيل القرطبى :

لمـا وضعت على قـلبى يدى بيدى
وصحت فى الليلة الظلمـاء واكبدى

ضـجت كواكب ليـلى فى مطالعهـا
وذابت الصخرة الصماء من جـلدى

فعـاقد بين قـوله « يدى بيدى » « وذابت الصخرة الصـماء من جـلدى » وذكـر أن المتنبى أنشـد من شـعر أهـل الأندلس حتى أنشـد هذين البيتين فقـال : « هـذا أشعر القـوم »(٦٤) .

أمـا التقسيم فقـد نبـه عليه فى مواضـع كثيرة من كتابه لدى كثـير من الشعراء وعلى الأخص ابن زيدون فقـد رأيناه أثنـاء ترجمته يقف عند هـذا النـوع من البديـع ويقـول : « وهو ممـا احتذى بـه ابن زيدون مذهب أبى العميثل الأعرابى وديك الجـن وهـذا البـاب صنعه المولدون وعـدوه تقسيماً وتقطيعا ويورد بيتـا لابن زيـدون :

تـه أحتمل واستطل أصبر وعزأهن
وول أقبل وقل أسـمع ومـر أطـع

---

(٦٣) الذخـيرة ، القسم الثانى ص٢١١ .
(٦٤) المصدر نفسـه ص ٢١١ .

وقد أعجب ابن بسام بهذا البيت إعجاباً شديداً حتى قال : « وأحسن لعمرى ابن زيدون فى هذا التقسيم ودفع الحديث فى صدر القديم »(٦٥) .

وكذلك تحدث عن المماثلة والسجع فذكر فى ترجمته للكاتب أبى الحسن صالح بن صالح الشنقرى أن كلامه فى هذين الضربين من البديع جار على الطبع ذاهب بين الجزالة والحلاوة »(٦٦) .

ومن المصطلحات البديعية التى وقف عندها ابن بسام — عدا ما ذكرناه ونقلناه عنه — الاستطراد والخروج والادماج وهى مما نقله عن ابن رشيق مع شىء من التغيير والتحوير فى الألفاظ والامثلة فجاءت عبارته أشمل وأمثلته أكثر تنوعاً .

وفى الاستطراد يقول ابن بسام : « وأصل الاستطراد أن يريك الفارس أنه فر وانما فر ليكر وكذلك الشاعر يريك أنه فى شىء فيعرض له شىء ولم يقصد اليه فيذكره وإن لم يقصد حقيقة اليه فان قطع ورجع الى ما كان فيه فذلك استطراد وإن تمادى فذلك الخروج » ويرى أن أصح الاستطراد قول السموءل :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول

ولكنه كعادته فى الاستحسان أو الاستهجان لم يبين بعمق سر الاستحسان أو الاستهجان وإنما هى لمحات خاطفة واشارات

---

(٦٥) الذخيرة ، القسم الاول المجلد الاول ص٣٢٠ .
(٦٦) الذخيرة ، القسم الثانى ص٢٢٦ .

عـابرة كمـا وضـح ذلك فيمـا أوردنـاه من نقـداته وتعليقـاته وألمحنـا اليـه فى صـدر هـذا المجـال الذى اتجـه اليـه ابن بسـام .

(هـ) السرقـة الأدبيـة :

تقـدم القـول بأن ابن بسـام اهتـم بالبديع وجعله « قيـم الأشعار » إذ بـه يعـرف تفاضلها وتباينهـا . ونعتقد أن ذلك مما جعـله يخـوض فى موضوع السرقات الأدبيـة ليضـع يـده على ما لأهـل الاندلس من ابتـداع فى المعـانى والألفـاظ الشعرية حتى لبمكن القـول بأن نظـرته الى السرقة الأدبيـة انمـا كانت على أسـاس من علـم البديع بـل على أساس أنهـا جـزء منـه . يمثل ذلك قـوله : « فقـد وعـدت أن ألمـع فى هـذا المجموع بلمـع من ذكـر البديع وأن أمهـد جانبـاً من أسبابه وأشرح جمـلا من أسمائه وألقـابه ، وإذا ظفـرت بمعنى حسـن أو وقفت على لفظ مستحسن ذكـرت من سـبق اليـه وأشرت الى من نقص عنـه أو زاد عليه ، ولسـت أقـول أخـذ هـذا من هـذا قولا مطلقـاً فقـد تتوارد الخواطـر ويقـع الحافـر حيث الحافـر إذ الشعر ميدان والشعراء فرسـان »(٦٧) .

وليس ابن بسـام فى الحقيقة مؤصـلا لهـذا الاتجـاه البديعى فى السرقـة بل هـو قـديم فى دراسات النقـاد القدماء أمثـال : ابن المعتـز المتـوفى سـنة ٢٩٧ هـ فى كتابه البديـع والآمدى المتوفى سـنة ٣٧٠ هـ فى كتـابه الموازنة ، وأبى هـلال العسكرى المتـوفى سـنة ٣٩٥ هـ صـاحب الصناعتين ، وأبى منصـور الثعالبى المتوفى

---

(٦٧) الذخـيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٦ ، ٧ .

٤٢٩ هـ فى يتيمة الدهر ، وابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فى كتابيه العمدة وقراضة الذهب • وغيرهم فقد نقل هؤلاء موضوع السرقة إلى حيز البلاغة لاسيما الآمدى وابن رشيق إذ جعلا « السرقة فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر لا فى المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عاداتهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده أن يقال : إنه أخذه من غيره »(٦٨) •

وكذلك الثعالبى فقد احتفل هو الآخر بأنواع البديع فى السرقة الأدبية »(٦٩) •

وابن بسام فى منهجه فى السرقات نراه لا يضيق على الشاعر ولا يحجر عليه بل يتميز برحابة أفق وسعة اطلاع تمشياً مع قواعد منهجه التطبيقى فهو يأخذ بـ « توارد الخواطر واتفاق الهواجس » ويتوافق بذلك مع القاضى الجرجانى صاحب الوساطة فى هذه النظرة(٧٠) بل إنه يكاد يحتذيه فى عامة منهجه فى هذا المجال إذ يرى رؤيته باستبعاد السرقة فى المعانى المشتركة وفى المعانى المخترعة التى تدوولت واستفاضت وفى التشابه الأسلوبى أيضاً وهو الاحتذاء حتى إن ابن بسام فى السرقة الأدبية ليقفنا عن حقائق ثابتة فى استراقات الشعراء مما عرفه النقاد العرب فى بحوثهم النقدية إلى وقت ابن بسام فقد تمثل طرائقهم جميعاً كما فى رؤيته للسرقة الحسنة التى أقرها الناقد ابن

---

(٦٨) الموازنة للآمدى جـ ١ ص٣٤٦ ، والعمدة لابن رشيق جـ ٢ ص٢٨١

(٦٩) انظر اليتيمة للثعالبى جـ ٢ ص١٠٧ .

(٧٠) انظر الذخيرة قسم أول مجلد واحد ص٣٠٤ والوساطة للجرجانى ص٥٢ ، ص١٨٣ ، ص١٨٥ ، ص٢١١ .

طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ من قبل نحو قوله : « وإذا تناول الشاعر المعانى التى سبق إليها فأبرزها فى أحسن صورة وكساها أحسن من الكسوة التى عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه »(٧١) .

وقد تنبه ابن بسام إلى شرائط السرقة المدوحة فقد تضمنت تعاليقه المبثوثة على سرقات الشعراء ما يتوجب للسرقة المستحسنة وهى صدى لآراء المتقدمين من النقاد من أمثال من ذكرنا كابن طباطبا والجرجانى وغيرهما .

ويزيد ابن بسام فى أنه تعقب السرقات واستقصاها لدى طائفة من الشعراء الأندلسيين والمشارقة والحق أن هذا الاتجاه الذى اتجهه ابن بسام فى تعقب السرقات إنما هو تحقيق لمنهج تاريخى عظيم لم يؤته عفو الخاطر وإنما هو نتيجة اطلاع علمى جاد وإحساس فنى أصيل نما وتطور مع شخصية ابن بسام الناقدة الواعية لخفايا الأدب ومعانيه وقد كان ذلك قيمة كبرى تحققت لابن بسام إذ كان يرجع الاشياء الى أصولها الأولى وينسبها الى قائليها الأول ليضع أمام القارىء درجات متفاوتة فى الفكر والعاطفة من خلال تفاوت العصور وتباين ثقافة أهلها التى أخرج فيها الأثر الفنى والنظر إليه وموازنته مع غيره مما قيل فى معناه أو فى لفظه أو مما قيل فى معناه ولفظه معاً ضمن آثار الماضى ونتاج الحاضر ، وتلك خاصية منهجية كان يجد فيها ابن بسام إحساساً باظهار اطلاعه وسعة محفوظه من الآثار الأدبية أندلسية ومشرقية .

---

(٧١) عيار الشعر لابن طباطبا ص٧٦ .

وعلى ذلك فـان هـذا الاتجاه يمثـل صورة ذهـن ابن بسـام وتفكيره الشخصى وتفقهـه لا فى الصناعة الشعرية بـل فيما هـو أبعد من ذلك فى « الابداع الشعرى » على حـد المصطلح العصرى • ذلك ابن بسـام حـاول تتبـع المعانى الشعرية ووجـوه البديـع فى شعر الشعراء منـذ أن اخترعها مخترعها فتناولها من جـاء بعده فـزاد عليـه وأحسن أو قصـر عنـه فأخفق •

كـل ذلك بداية من العصـر الجاهلى إلى عصـر ابن بسـام ممـا جعـل لدراسته هـذه أن تسـاير تاريخ الأدب فى سـير تطوره سـواء نحـو التحسن أو الضعف •

ويوازن بين الشعراء والعصـور لا موازنة من لا يتجاوز مجـرد الاستحسان أو النفـور فى حـكم عـام على شـاعر أو بيت بـل موازنة تقـوم على كيفيـة تنـاول معنى بذاته أو صورة من البديـع بعينهـا بالاعتماد على الذوق الأدبى الذى هـو أسـاس العملية الفنية والمحسنات البديعية التى كانت من سـمات العصـر آنذاك •

وهـكذا فـان موضوع السرقـة ـ فى عمومه ـ إنمـا هـو النظـر فى الابـداع الشعرى وتطـوره ونقـد كثير من لشـعر فى نطـاق هـذا الابداع وهـذا التطـور •

وممـا يجب إليـه التنبيه هاهنـا أن بن بسـام لم يبن دراسته فى السرقـة الأدبيـة على نظـرية بعينهـا يناقشها ويطبقها بـل إن جهوده ومواقفه كانت استمراراً للجهـود العربية النقدية السابقة فى هـذا المجـال • غـير أننـا نتبين فى كتابه الذخـيرة تنبهـاً إلى النواحى العـامة التى لابـد من مراعاتها فى دراسة السرقات لاسـيما ما اتصـل منهـا بالمصطلحات التى لهـج بهـا النقـاد قبـله •

وأظهر ما يميز موقفه من السرقة الأدبية منهجه الواضح القائم على الاستقراء الذوقى الشامل من جهة وعلى سعة اطلاعه وإحاطته بهذا الفن ومصطلحه من جهة أخرى حتى لتكاد بحوثه فيها تفوق ـ فى تناولها والافصاح عنها ـ أسلوب النقاد العرب السابقين عليه فى بحوثهم الأدبية فى السرقات .

وعلى هذا الأساس فقد ميز ابن بسام فى نظرته إلى المعانى بين أقسام ثلاثة :

أولها : المعانى القديمة المتداولة .

وثانيها : المعانى التى تتميز بأنها قليلة الدوران على ألسنة الشعراء .

وثالثها : المعانى الجديدة المخترعة .

أما القسم الأول فهو لا يخرج عن كونه معانى مطروقة متداولة بين الناس ثابتة فى وجدانهم ومقصورة فى كل خاطر مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ولا يحتاج فى العلم به إلى رؤية واستنباط وتدبر . فهذا القسم لا سرقة فيه بل هو مشاع مباح لأن تؤخذ معانيه للسبب المذكور ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بحسن تأليف اللفظ وصياغته .

ولابن بسام أقوال كثيرة متناثرة حول هذا المعنى من مثل قوله : « معنى قد طوى ونشر »(٧٢) أو كقوله : « معنى

---

(٧٢) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الاول ص ٣٠ .

قد كسف رواؤه مما ابتذل وأسن ماؤه ، مما عل به ونهل »(٧٣) أو أنه « معنى من متداولات المعانى »(٧٤) .

ومن أمثلته فى تعقيب المعنى الواحد لدى أكثر من شاعر تعليقه على البيت الآتى للفقيه أبى حفص عمر الهوزنى :

بدء صعق الأرض نشر وطل
وريـاح ثم غيم أبـل

« معنى مبتذل ومنه المثل : « السقط يحرق الحرجة »(٧٥) وقال الأول « والشىء تحقره وقد ينمى » وقال الفرزدق :

قوارض تأتينى وتحتقرونها
وقد يملأ القطر الانـاء فيفعم

وقال نصر بن سيار من أبيات كتب بها لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

فان النار بالعودين تذكى
وإن الحرب مبدؤها الكلام

وقال أبو تمام وعول عليه الفقيه ــ أبو حفص ــ ولكنه استحقه بما زاد عليه :

كم من قليل غدا كثيراً
كم مطر بدؤه مطر

---

(٧٣) المصدر نفسه القسم الأول المجلد الثانى ص١١ .
(٧٤) الذخيرة ، القسم الأول المجلد ص٣٠١ .
(٧٥) السقط : أول ما يقع من النار ، والحرجة : الغابة كثيرة الاشجار « انظر لسان العرب مادة حرج » .

إلى غير ذلك مما لا يحد شهرة ولا يحصى كثرة »(٧٦) .

وأما القسم الثانى : وهى المعانى التى تعد قليلة فى أنفسها فانه يتسامح فى التعرض إلى شىء منها وذلك بشروط منها :

١ ــ التجويد فى الزيادة . وقد رأيناه ــ أى ابن بسام ــ وهو يفرق بين ماهو مليح من السرقة الحسنة وغير الحسنة يقف موقفاً وسطا إذا ما أخفى الشاعر سرقته بما يشغل بها عن ذكر أصلها . ومن أمثلة ذلك ما التقطه أبو نواس من سرقة فى تصوير الكأس فى قوله :

قرارتها كسرى وفى جنباتها
مها تدريها بالقسى الفوارس

فللراح ما دارت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس(٧٧)

يريد أن حد الخمر بلغ نحور هذه الصور وزيد الماء فيه فانتهى الشراب إلى فوق رءوسها وفائدة هذا معرفة حدها صرفا من حدها ممزوجه .

ثم أورد أن أبا نواس ولد هذا المعنى من قول امرىء القيس :

فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه
وشجت بماء غير طلق ولا كدر

---

(٧٦) الذخيرة ، القسم الثانى ص٣٧ .
(٧٧) المصدر نفسه ص٢٧٨ .

فتسلق الحسن عليه وأخفاه بما شغل به الكلام من ذكر الصورة المنقوشة فى الكأس إلا أنها سرقة مليحة(٧٨) .

على أن ابن بسام قد أدرك أنه فى مثل هذه المعانى المتقدمة مما انفرد به كل واحد من الشعراء لا يكون الأخذ إلا بزيادة تظهر(٧٩) .

٢ ــ ومنها ــ أى الشروط ــ قلب المعنى إلى موضع آخر أو نقله عن غرضه الأصلى أو التركيب عليه بعبارة أحسن من الأولى ومن أمثلة ذلك أنه عندما تعقب ما تحاورته الشعراء من المعانى فى صور متباينة قال : « وفى قريب منه قول ابن شرف :

عجبت منه وأحشائى منازله
كيف استقر بها من كثرة القلق !

يقول ابن بسام : « وقلب هذا المعنى بعض فتيان وقتنا وهو الأديب أبو بكر بن بقى فقال :

أبعدته عن أضلع تشتاقه
كى لا ينام على وساد خافق(٨٠)

وبعد أن أورد هذا البيت الآتى من مقطوعة لأبى الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادى :

---

(٧٨) الذخيرة ، القسم الثانى ص٢٧٨ .
(٧٩) المصدر نفسه ص٢٧٩ .
(٨٠) الذخيرة ، قسم أول مجلد ثان ص٢١٩ .

جفـت جفونى الآماق فيـك فمـا
تسـبل أشفارها عـلى الحـدق

قـال : وإنمـا أشـار فى هـذا الى قـول بشـار :

جفـت عيـنى عن التغميض حـتى
كـأن جفونهـا عنهـا قصـار

فنقـل لفظـه ومعنـاه وقصـر عنـه • وقـد أخـذ أيضـاً العتـابى هـذا المعنى واجتنـاه أريـا فـرده شربا بقـوله :

فى انقبـاض عـن جفونهـا
وفى الجفون عن الآماق تقصـير(٨١)

على أن ابن بسـام قـد اعتمـد رأى ابن شـهيد فى حسـن الأخـذ فى السرقـة الادبية بقـوله :

« وقـد تقـدم القـول من تخيـل حـذاق الصناعة فى أخـذ المعـانى أن تترك القافية والوزن وكـذلك يجب أن يقصد الى التطويل إذا قصـر المتقـدم • ألا تـرى قـول أبى عـامر ــ ابن شهيد ــ حـين سـمع الرمادى يقـول :

ولـم أر أحـلى من تبسـم أعـين
غـداة النـوى عن لؤلؤ كان كامنـاً

فقـال أبـو عـامر :

ولمـا فشا بالدمع من سـر وجـدنا
إلى كاشحينا مـا القـلوب كـواتم

---

(٨١) الذخـيرة ، القسم الأول مجلد واحد ص٢٧٤ .

أمـرنا بامسـاك الدموع جفوننـا
ليشجى بمـا تطوى عـذول ولائـم

فظـلت دموع العـين حيرى كأنهـا
خـلال مآقينـا لآل توائـم

أبى دمعنا يجـرى مخافة شـامت
فنظمـه بـين المحاجـر ناظـم

وراق الهـوى منـا عيون كريمـة
تبسـمن حتى ما تـروق المباسـم

فأقـام بهـذا التركيب ما نسـيت لـه حيـلة التطويل(٨٢) .

وبيت الرمادى من قـول ابن عبد ربـه :

وكأنمـا غـاص الأسى بجفونهـا
حـتى أتـاك بلؤلـؤ منثـور

فاحتـال الرمادى حتى أتى باللؤلؤ ، وعـوض من الغـائص التبسـم ، ووقعت لـه استعارة التبسم للعيـن موقعا لطيفـاً وإنما هـو للثغور بسبب توسـط اللؤلؤ الذى هـو للعيـون والثغـور فنسـخ المعنى نسخا وقلبـه قلبـاً وتشبيه الدموع باللؤلؤ أكثـر من أن يحـصى »(٨٣) .

وأما القسـم الثالث والأخـير . فهـو المرتبة العليـا فى الشعر من ناحيـة استنباط المعـانى لأن ذلك يـدل على نفـاذ عاطر الشاعر وتوقـد ذهنـه إذ يمكن أن يستنبط معنى غريبـاً .

---

(٨٢) المصدر السابق ص٢٧٦ .
(٨٣) الذخـيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٢٧٧ .

وهـذا النـوع المخترع لا يمكن أن يهتدى إلى مثـله كل فكـر بـل يتحـاماه الشـعراء لانكشاف السرقة فيـه : « والمعـانى التى بهـذه الصـفة تسمى العقـم لأنهـا لا تلقـح ولا تحصل عنهـا نتيجـة ولا يقتدح منهـا ما يجرى مجراهـا من المعـانى »(٨٤) .

والأمثلة التى تـدل على أن ابن بسـام كان يسعى وراء ما سماه اختراعاً وابتـكاراً ممـا انفـرد بـه كل واحـد من الشعراء أو تميـز بـه لا يكـاد يتناولها حصـر فى كتـابه الذخـيرة بيد أنهـا فى جملتها تعليقـات نقـدية فى حـدود الجزئيات كمـا أسـلفنا .

ومن أمثـلة ذلك تعليقه على أبيـات لابن عبدون من قصيدة لـه :

كـأن عـداه فى الهيجـا ذنـوب
وصـارمه دعـاء مسـتجاب

فقـال : « وهـذا ممـا أغـرب فيـه ، ولم أسـمع لـه شبيه ، ولعـله أمـير شـعره ، ونتيجة فكـره » .

وقـد كـرر ابن بسـام مثـل هـذا القـول على بيت آخـر من القصـيدة نفسها وهـو :

وسـرت ومـن كواكبـه حـلى
عـلى ومـن غياهبـه قـراب

فقـال : « وهـذا ممـا سلك فيـه سـبيلا من البديع لا تسلك واسـتولى منـه على غـاية من الكـلام المطبوع قلمـا تدرك » .

ومن ثم فهـو يـرى فى الاختراع أن يجىء الشـاعر بمعنى

---

(٨٤) المصدر نفسـه ص٢٨٠ .

جـديد لم يطـرقه الشعراء من قبـله وفى كتـابه الذخـيرة شواهد أخـرى على أن فـكرة الاختراع بهـذا المعنى كانت ممـا شغل بـه نفسـه إذ أنـه فى تعليقاته كـان يتكىء على هـذا الجانب كثـيراً ويشـير إلى مافى منظـوم الشعراء من ابتـكار • فهـو يتعقب المعنى الشعرى حتى يصـل بـه إلى مصـادره الأولى فينسبه إلى من سـبق فيـه القـول وينظـر الى ما بينـه وبين ما يشبهه أو يوافقه ثم ينقـد ذلك بالثنـاء أو بالتقبيح مع محـاولة الابانة عن أوجـه الاستحسان أو التقصـير فى إيجـاز وتركيـز •

مثـال ذلك هـذا البيت الذى سـاقه لابن عبدون فى وصـف الذباب وهـو :

على ربى لم يزل شادى الذباب بهـا
يلهى بأنسـق ملفـوظ ومضـروب

فقـال : « وصـفة ابن عبدون للذباب أجـاد فيـه ما أراد وقـد تنـاول هـذا المعنى أبو بكـر بن سـعيد البطليوسى وأخـذ ابن عبدون من قـول ابن الرومى يصـف روضـاً وإنمـا اخترعه أولا عنتـرة بقـوله :

فتـرى الذباب بهـا يغنى وحـده
هزجـا كفعـل الشـارب المترنـم

غـرداً يحـك ذراعـه بذراعـه
فعـل المـكب على الزناد الأجـذم

فعـلق على ذلك بقـوله : « وهـذا من التشبيه الذى ما لـه شـبيه ولم يجـر عليـه أحـد »(٨٥) •

---

(٨٥) انظر الذخيرة ، القسم الثانى من ص٢٧٥ ـ ص٢٨٠ •

وقد فرق بين صور من الأخذ فى السرقة الأدبية كالذى وصفه بالتناسب بين ألفاظ الشعراء ومعانيهم والاتباع والاختراع فهو يعلى من شأن هذه المصطلحات ويستحسنها كما فى تعليقه حول هذا البيت لأبى بكر بن الملح من قصيدة له يقول فيه :

لو كانت الشمس من خدام دولتكم
والعدل ما العدل لم تبرح من الحمل

يقول ابن بسام : « ولم أسمع بمثل هذا البيت لمن سبق فان كان إتباعا فما أحسن وما أرق ، وان يكن اختراعاً فما أولى وأخلق »(٨٦) .

وفى أثناء تتبعه لأبيات ابن زيدون نراه يقول : « وقوله : « وللنسيم اعتلال فى أصائله ... البيت » أراه ألم فيه .

يقول ابن المعتز :

والريح تجذب أطراف الثياب كما
أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان

فقلبه الرضى وقال :

وأهست الريح كالغيرى تجاذبنا
على الكثيب فضول الريط واللمم

---

(٨٦) الذخيرة ، القسم الثانى ص١٨٧ .

وأحسن الفرزدق أبا عذرته وواسم غرته بقوله :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
لهاترة من جذبها بالعصائب(٨٧)

وكذلك رأيناه وهو يتتبع قصيدة ابن المصيصى يقول : « وقول ابن المصيصى :

من مبلغ يده أنى نظمت لها
شكراً جعلت قوافيه من القبل

أخذه من قول ابن عبدون :

وبلغ عن فمى يده سلاماً
كما أذكى الأزاهير الرباب

وقول حسان ــ يعنى ابن المصيصى :

لا تحمدن زهد من لم يعط رغبته
لعلة عض من جفنيه ذو الحول

معنى قد أكثر الناس فيه وإن كان حسان له فضل بزيادة التشبيه » ثم يقول : « ومن مشهوره قول حبيب :

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له
بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقد أحسن فيه أبو الطيب بقوله :

---

(٨٧) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص٣١٤ .

والظلم فى خلق النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقال بعض أهل عصرى :

تورعوا بين لا عزوا ولا ظفروا
وأكثر الضعف محسوب على الورع

وقوله :

وكم له سنة ضاء الزمان بها
ضوءاً بلا لهب كالشمس فى الطفل

معنى بين النقصان قصير الباع فى مدى الاحسان وفيه نقد أعرب عنه بعض أهل زماننا ومن فى طبقة ديواننا وهو أبو حاتم الحجارى وزاد فيه بقوله :

فكفى من الدينار صفرة وجهه
الشمس صفرتها من أجل زوالها

وقد نقله بعض أهل عصرى الى النسيب فقال :

يعيبونها عندى لصفرة وجهها
فقلت الهرقليات أوجهها صفر

وقوله :

من كل معتقل بالبأس مخترط
للعزم مدرع للحزم مشتمل

من التقسيم المليح فى القريض الذى كثيرا ما يتفق فى هذه العروض • وهو شبيه بقول أبى سعيد المخزومى :

وما يريدون لولا الجبن من رجل
بالليل مدرع بالجمر مكتحل

وشبيه أيضا بقول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم
فى الله مرتقب لله مرتغب

إلى غير ذلك مما لا يحصى والاحاطة لله تعالى »(٨٨) •

الكلمة الأخيرة

وبعد • فهذه خلاصة ما اجتهدنا أن نكتبه عن ابن بسام ولمحاته النقدية وهى لمحات لها قيمتها التاريخية والأدبية لا يفرغ منها قارئها حتى يتجلى له القرن الخامس الهجرى على نحو واضح من خلال نتاج أهل الأندلس فى العلم والأدب والنقد كما صورته تلك اللمحات ــ على وجازتها ــ واحتواها كتابه « الذخيرة » الذى نرجو أن يكون قد اتضحت قيمته مصدراً من مصادر التاريخ والنقد الأدبيين عن هذه الفترة فى حياة الأندلس •

د• محمود جمعة أمين
مدرس الأدب والنقد فى الكلية

---

(٨٨) الذخيرة ، القسم الثانى من ص١٧٦ ــ ١٧٩ .